من تراث

الإمام أبي حفص عمر السهروردي

الرسالة الثانية

حلية الفقير الصادق

مقدّمة

هٰذه الرِّسالةُ عبارةٌ عن جوابٍ لسؤالٍ وُجِّهَ إلى السُّهروردِيِّ بخصوصِ الخِصالِ التي ينبغي أن يَتحلَّىٰ بها الفقيرُ السَّالكُ طريقَ التَّصوُّفِ ؛ ليكونَ متحقِّقاً بصفاتِ أهلِ التَّصوُّفِ ، مُقتَدِياً بهم ، سائراً علىٰ مِنهاجِهم ؛ فكتَبَ السُّهروردِيُّ هٰذه الرِّسالةَ .

استهلَّ السُّهروردِيُّ جوابَه بتلخيصِ هٰذه الخصالِ في صورةِ وصايا مُوجَزةٍ ، صاغَها في عباراتٍ قصيرةٍ ، وقدْ بدأَها بقولِه : (اجعَل يا أخي زادَكَ التَّقوىٰ ، وبِضاعتَك الإخلاصَ ، وسَفرَك الآخرةَ ، وأنفاسَك المَراحِلَ ، ومَنزِلَك القبرَ . . .) .

وبعدَ هٰذه الوصيَّةِ الملخَّصةِ ذَكَرَ فصولاً عِدَّةً تدورُ حولَ محبَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ لعبدِهِ ، ووصولِ العبدِ إلىٰ مولاهُ ، ودخولِ الفقيرِ السَّالكِ للخَلوةِ ، وشَرحِ آدابِها ، ومعرفةِ النَّفسِ وأحوالِها ، وبعضِ النَّصائحِ والإرشاداتِ للسَّالكِ طريقَ التَّصوُّفِ ، وتفضيلِ الفقرِ علىٰ ما سواهُ ، وبيانِ صفةِ الدُّنيا وحقيقتِها ، وصفةِ طريقِ اللهِ تعالىٰ ، وهي فصولٌ تُعَدُّ شرحاً وإيضاحاً لبعضِ ما جاءَ في الوصيَّةِ الَّتي استهلَّ لها .

وقدْ بوَّبَ السُّهروردِيُّ في كتابِه « عوارفِ المعارفِ »[1] باباً حولَ أخلاقِ الصُّوفيَّةِ ، وفيه توسُّعٌ ومزيدُ بيانٍ عنِ الرِّسالةِ الَّتي بين أيدينا[2] .

---

(١) ينظر « عوارف المعارف » الباب التاسع والعشرون (٢/٥٦) ، والباب الثلاثون (٢/٦٥) .

(٢) يُراجَع المزيدُ من الكلامِ على الكتابِ في : « أبو حفص عمر السُّهروردِيُّ ؛ حياتُه وتصوُّفُه » : (ص ٦٩ ـ ٧٠) .

وصف النسخ المعتمدة في التحقيق

اعتمدتُ في تحقيقِ هٰذه الرِّسالةِ علىٰ نُسخةِ دار الكتبِ المصريَّةِ ، المحفوظةِ برقم : (٦ ـ تصوُّف ، تَيمور ٧٤) ، وهي ضمن مجموعٍ فيه ثلاثُ رسائلَ لأبي عبدِ الرَّحمٰنِ السُّلَمِي ؛ وهي : « عيوبُ النَّفسِ » ، و« سُلوكُ العارفينَ » ، و« الأمرُ المحكمُ المربوطُ » .

ويُوجدُ منه عِلاوةً علىٰ ما سَبَق عشرُ نُسَخٍ ، بيانُها كالآتي :

تركيا :

١ ـ أسعد أفندي : تُوجدُ بالمكتبةِ نُسخةٌ من هٰذه الرِّسالةِ مع شَرحِها ، برقم (١٧٦١) .

٢ ـ راغب باشا : برقم (٥٢١) .

٣ ـ قونية : برقم (٢٧/١٩٨) ، الأوراق (١٨٥ ـ ١٨٧) .

سوريَّة :

ـ المكتبةُ الظَّاهريَّة : برقم (٣٨٨٠) ، الأوراق (٥٣ ـ ٦٤) مِن مجموعٍ مَكتوبٍ في سنة (١١٨٤ هـ) ، يتكوَّن من (١٤٧) ورقة ، بدمشق .

آذربيجان :

ـ معهدُ المخطوطاتِ العربيَّة في باكو ، برقم (٢٧٨٥/٤٤١٠ ـ b) .

الهند :

ـ خُدابخش : برقم (٩٥٧/١٣) (٣) .

ألمانيا :

١ ـ مكتبةُ الدَّولةِ ببرلين : برقم (٢/٣١٤١) .

٢ ـ مكتبة جامعة توبنغن : برقم (١٩/٨٩) ، الأوراق (١٢٤/أ ـ ١٢٥/ب) .

الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة :

ـ مكتبة جامعة برنستون ، مجموعة يَهودا ، برقم (٢٦٩٤) ، الأوراق : (٨٠ ـ ٨٢) ، ورقم (٢٦٩٥) ، الأوراق (١٧ ـ ٢١) .

ـ وقد وَرَدَ في « مُعجم تاريخِ التُّراثِ الإسلاميِّ » : (٣/٢٢٩٥ ، ٢٢٩٦) منسوباً إلىٰ عمرَ السُّهْرَوَرْدِيِّ بعُنوانينِ مختلِفَينِ : « رسالةٌ في شرحِ معنى الفقرِ ـ في التَّصوُّفِ » ، و« رسالةُ الفقرِ في مخالفةِ النَّفْسِ والقَهرِ » .

وفي « خِزانةِ التُّراثِ » جاءت منسوبةً إلىٰ عمرَ وحدَه بعنوان : « رسالةٌ في الفَقرِ » .

وجاءت في (٥/٣٩٠٦) منسوبةً إلى المقتولِ ، بنَفْسِ العنوانِ الأخيرِ .

نماذج من صور المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

الحمد لله رب العالمين والصلوة والتسليم على خير خلقه
محمد وعلى اله وصحبه اجمعين قال الشيخ الامام القطب
الرباني امام المتقين وقدوة العارفين امام الطريقة
وبحر الحقيقة الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمر السهر
وردي قدس الله روحه ونور الله ضريحه ورضي الله
عنه ولا يحرمنا بركاته انه قريب مجيب قال سألني
بعض الاخوان عن حلية الفقير الصادق في التصوف
بسألتني يا اخي وفقك الله اجعل يا اخي زادك التقوى
وبضاعتك الاخلاص وسفرك الاخرة وانفاسك المراحل
ومنزلك القبر وقرينك الصبر وصاحبك النفي وتدبيرك
الجوع وحركاتك السكون وبيتك الخلوة وطعامك الجوع
وشرابك الدمع ولباسك الفقر والتضرع ونومك محاسبة
العمر ووسادتك ركبتيك ومجلسك المجد ورسمك
الحكمة ونظرك العبرة ومراقبتك الحياء ورفيقك الهدى
وشيمتك حسن الخلق وعلمك القناعة وصلاتك المواساة
وصومك الصمت وهمك النار وفرحك الجنة وصحتك
اليأس ومرضك الطمع ومذكرك المقابر ووعظك لذاتها
ومطربك الحزن وسماعك ذكر الموت وراحتك الدنيا
واربابها وسلاحك الوضوء ومركبك الورع وخصمك الشيطان
وعدوك النفس وسجنك الدنيا وسجانك الهوى وليلك
التضرع ونهارك الاستغفار واسعادك الهوى وحاصلك

نسخة دار الكتب المصرية

والملكون يتمثلون لا إله إلا الله ويشهد رسول
إلى الله من جميع دعواه وما له يشهد بقلبه ويقول بلسانه
لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا معبود سواه ولا إله إلا
هو الحي القيوم الباقي وما سواه ميت فاني ثم قال الشيخ
رضي الله عنه لنفسي استدل في وصف حالي وربه مقالي
هذه الأبيات شعر نصحتكم يا أخواني فتدبروا بتدبر
تلبسي ولا تقولوا انه زاهد لا تسمعوا قولي وتدليسي
طبي وكاسي ملأ وزاري لا تغربوا ناسي ولا تنسي
اما سمعتم ابي راهب تحت العبا والعقل قد بيست
عروس جهل ورد هازله لا تغربوا ورد ربيع
مدرستي قبلتي ودا معبدي تكرار ذكري علم تقدسي
نفسي ابليس تجربتها تعوذوا من شر ابليسي تم
وبالخير عمت والحمد لله رب العالمين والصلوة
والسلام على خير خلقه محمد وآله وصحبه
أجمعين اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات
والمسلمين والمسلمات الأحياء والأموات
من أهل السنة والجماعة
آمين برحمتك يا أرحم الراحمين

نسخة دار الكتب المصرية

حلية الفقير الصادق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصَّلاةُ والتَّسليمُ على خَيرِ خَلْقِه محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِه أجمعينَ .

قالَ الشَّيخُ الإمامُ القُطبُ الرَّبَّانيُّ إمامُ المتَّقينَ وقُدوةُ العارفينَ إمامُ الطَّريقةِ وبحرُ الحقيقَةِ الشَّيخُ شِهابُ الدِّينِ أبو حفصٍ عمرُ السُّهرَوَرْدِيُّ ، قدَّسَ اللهُ رُوحَه ، ونوَّرَ اللهُ ضَريحَه ، ورضي الله عنه ، ولا يَحرِمُنا بركاتِ أنفاسِهِ النَّفِيسَةِ .

قالَ : سألَني بعضُ الإخوانِ عن حِليَةِ الفقيرِ الصَّادقِ في التَّصوُّفِ .

سألتَني يا أخي وفَّقكَ اللهُ :

اجعَل يا أخي زادَكَ التَّقوى ، وبِضاعتَكَ الإخلاصَ ، وسَفرَكَ الآخرةَ ، وأنفاسَكَ المَراحِلَ ، ومَنزِلَكَ القبرَ ، وقَرينَكَ الصَّبرَ ، وصاحِبَكَ اليقينَ ، وتَدبيرَكَ العَجزَ ، وحَركاتِكَ السُّكونَ ، وبيتَكَ الخَلوَةَ ، وطَعامَكَ الجُوعَ ، وشَرابَكَ الدَّمعَ ، ولباسَكَ الفَقرَ والتَّضَرُّعَ ، ونومَكَ مُحاسَبةَ العُمُرِ ، ووِسادَتَكَ رُكبَتَيكَ ، ومَجلِسَكَ المسجدَ ، وَوَرْسَكَ[1] الحِكمةَ ، ونَظَرَكَ العِبرةَ ، ومُراقبتَكَ الحياءَ ، ورَفيقَكَ التَّقوى ، وشِيمَتَكَ حُسنَ الخُلُقِ ، وعِلمَكَ القَناعةَ ، وصَلاتَكَ الوَداعَ ، وصَومَكَ الصَّمتَ ، وهَمَّكَ النَّارَ ، وفرَحَكَ الجَنَّةَ ، وصَحبَكَ اليَأسَ ، ومرَضَكَ الطَّمَعَ ، ومَذْكَرَكَ المقابرَ ، ووَعْظَكَ الأيَّامَ ، ومَطْرَبَكَ الحُزنَ ، وسَماعَكَ ذِكرَ الموتِ ورفضَكَ الدُّنيا وأربابَها ، وسِلاحَكَ الوُضوءَ ، ومَركَبَكَ الوَرَعَ ، وخَصمَكَ الشَّيطانَ ، وعدُوَّكَ النَّفْسَ ، وسِجنَكَ الدُّنيا ، وسَجَّانَكَ الهَوى ، ولَيلَكَ التَّضرُّعَ ، ونهارَكَ الاستغفارَ والاستعدادَ للمَوتِ ، وحاصِلَكَ الوقتَ ، وحِصنَكَ الدِّينَ ، وشِعارَكَ الشَّرعَ ، وحديثَكَ كتابَ اللهِ ، ورأسَ مالِكَ حُسنَ الظَّنِّ باللهِ ، وحِرصَكَ

---

(١) الوَرْسُ : نبتٌ أصفرُ ، يُصبَغُ به ، والمعنى : جمِّل نَفْسَك بالحِكمةِ .

الصَّلاةَ علىٰ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وعادتَكَ الدُّعاءَ لجميعِ المُسلِمينَ ، وصَمتَكَ[1] العَمَلَ الصَّالِحَ ، وخَوفَكَ رَدَّ العَمَلِ وسُوءَ الخاتِمةِ ، وغايةَ مُتناهِي هِمَّتِكَ اللهَ وقُصارَىٰ أُمنِيَّتِكَ .

هو هـٰذا نَعتُ الفقيرِ وصِفَتُهُ ، وما عدا ذٰلكَ أمَانِيٌّ وغُرُورٌ .

فإذا وُفِّقْتَ لهـٰذا وفَعَلتَهُ . . عِشتَ حُرّاً ، ومِتَّ فارغاً عارفاً ، فأُقِمتَ بحمدِ اللهِ مِنَ القبرِ آمِناً ، ودخلتَ الجَنَّةَ سعيداً إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

---

(١) وتُقرأ : (وهِمَّتك) ، وكلاهُما وجيهٌ ؛ له حظٌّ مِنَ التَّوجِيهِ .

فصل

في علامة محبة الله تعالى عبده ووصول العبد إلى مولاه جلّ ذكره وصفاته[1]

وحَصرُ مَعرفتِهِ بصفاتِه تعالىٰ وتقدَّسَ : أن يَعلَم[2] المُتوجّهُ إلى اللهِ ، السَّائرُ إلىٰ حَضرتِه : أنَّ المانِعَ والمُعطِيَ ، والضَّارَّ والنَّافعَ ، والهادِيَ والمُضِلَّ . . هو اللهُ تعالىٰ ، وليسَ في الوُجودِ إلَّا هو الباقِي ، وما سِواهُ فانٍ .

ويَستَوي لسانُهُ وقلبُهُ في الذِّكرِ ، وتَمتلئُ عُروقُهُ مِنْ مَحبَّةِ اللهِ وذِكرِهِ ، ولا يَرىٰ لِنَفْسِهِ قِيمةً ، ويُبغِضُ الدُّنيا وطُلَّابَها ، ويُحِبُّ المَوتَ ولِقاءَ اللهِ ، ويختارُ الخَلْوةَ والعُزْلةَ عَنِ النَّاسِ .

ويَستَوي عندَهُ المدحُ والذَّمُّ ، والخيرُ والشَّرُّ ، والمَنعُ والعَطاءُ ، والذَّهبُ والتُّرابُ ، ويَبكي باللَّيلِ والنَّهارِ علىٰ تقصِيرِهِ ، ويكونُ في الدُّنيا بالقالَبِ ، وفي الآخرةِ بالقَلبِ .

ويُصحِّحُ إيمانَهُ واعتقادَهُ معَ اللهِ تعالىٰ ، ولا يَجرِي علىٰ لِسانِهِ إلَّا ذِكرُ الحقِّ وذِكرُ الموتِ ، وشيءٌ مِن هَولِ المُطَّلَعِ ، أو صِفةٌ مِنْ صفاتِ الجَنَّةِ أوِ النَّارِ .

ويكونُ أقربَ الأشياءِ إليهِ الموتُ ، وأبعدَ الأشياءِ إليهِ الأَمَلُ ، ويَبكي علىٰ أنفاسِهِ بعدَ يَأسِهِ عن جَميعِ الخلائقِ .

هٰذه علامَةُ إقبالِ اللهِ تعالىٰ برحمتِهِ وفَضلِهِ علىٰ عبدِهِ الضَّعيفِ ، وَوُصولِ العبدِ إلىٰ بابِ سيِّدِهِ ومَولاهُ تباركَ وتعالىٰ .

---

(١) قولُه : (وصفاتُه) : مُلحَقٌ من حاشيةِ الأصل الخطِّيِّ .

(٢) في الأصلِ : (يعملَ) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ ، والله أعلم .

فصل

في حقيقة دخول الفقير في الخلوة وشرح آدابها

بسم الله الرحمن الرحيم

وحاصِلُهُ : أنْ يكونَ هٰذا العبدُ السَّالِكُ المريدُ فارِغاً مِنَ الدُّنيا والآخرةِ[1] ، طالباً[2] رِضاءَ اللهِ تعالىٰ وصَلاحَ قَلبِهِ وحالِهِ ، طاهراً مِنْ نَجاساتِ الذُّنوبِ بالتَّوبةِ ، ومِنْ مَظالِمِ الخَلقِ بالاِستِحلالِ[3] أو بِرَدِّها ، هارِباً مِنَ الدُّنيا وأربابِها ، مُقبِلاً على الآخرةِ مشغُولاً بأسبابِها ، مُتوجِّهاً إلىٰ حَضرَةِ اللهِ تعالىٰ بجميعِ ما في قَلبِهِ وبَدَنِهِ ، مُجرَّداً خالِياً عن جميعِ الإراداتِ ظاهراً وباطناً ، صامِتاً وساكِتاً ، مُتضرِّعاً خائفاً ، باكياً مُستَحيِياً ، فقيراً خالِصاً ، مُستَمسِكاً بالشَّرعِ ، حافِظاً لحُدودِ اللهِ ، عالِماً بأحكامِهِ ، تابِعاً لسُنَّةِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم .

فإذا دَخَلَ الخَلوَةَ . . يَظُنُّ أنَّهُ مَيِّتٌ ، وبيتُ الخَلوَةِ قبرُهُ ، فلا يبقَىٰ لميِّتٍ اختيارٌ ولا إرادةٌ ، وإنْ كانَ لهُ حاجةٌ . . يَقضِي جميعَ حَوائجِهِ وأشغالِهِ قبلَ دُخولِهِ ؛ حتَّىٰ لا يتعلَّقَ قلبُهُ بشيءٍ سِوى اللهِ تعالىٰ ، ويَطلبُ مكاناً بعيداً مِنَ[4] الخَلقِ ، قريباً مِنَ الجامِعِ ، أو في مَوضِعٍ لا يجِبُ عليهِ حضورُ جُمُعةٍ[5] .

---

(١) لعلَّه يعني بها : ألا يحمِلَه على العملِ ما وَعَدَ اللهُ به عِبادَه مِن نَوالٍ ، بل يَعمَلُ حبّاً لله وطاعةً له ، علىٰ غِرارِ قولِ رابعةَ العدويَّة المشهورِ في هٰذا المعنىٰ .

(٢) في الأصلِ : (طالب) ، وهو معطوفٌ علىٰ ما قبلَه .

(٣) أي : أن يكونَ في حِلٍّ مِن قِبَلِهم ؛ بأن يسألَهم العَفوَ والمُسامَحةَ .

(٤) كذا في الأصلِ .

(٥) وقال في مَطلعِ أجوبتِه على السُّؤلاتِ ، وعند الجوابِ على السُّؤالِ الخامسِ : (غيرَ أنِّي لا أحِبُّ للمُريدِ أن يَترُكَ الصَّلاةَ جماعةً ، بل يَحضُرُ الفَرضَ ويَرجِعُ إلىٰ خَلوَتِه ؛ حتَّىٰ لا تكونَ خَلوَتُه رَهبانِيَّةً ، ←

وينبَغي أن يكونَ مكاناً ضيّقاً ، لا يَدخلُ فيه شُعاعُ الشَّمسِ ولا ضَوءُ القمرِ ، ولا يكونُ عندَهُ مَعلومٌ ولا مَطعومٌ ، ويشتَغِلُ بالذِّكرِ دائماً ، ليلاً ونهاراً ، سِرّاً وجَهراً ؛ بلا فُتُورٍ وتَعلُّلٍ ، يأخذُ قَلبُهُ مِنْ لِسانِهِ ، ولِسانُهُ مِنْ قَلبِهِ ، ويقومُ بأمرِهِ شيخٌ ناصحٌ ، أو أخٌ مُشفِقٌ ، أو رفيقٌ صالحٌ ، أو صديقٌ حميمٌ ؛ بطعامِهِ ومِزاجِهِ ، وصَلاحِهِ وفسادِهِ ، وعَقلِهِ ودِماغِهِ ، وتَسكينِ صبرِهِ وتَعجيلِهِ ، وسُلطانِ وَهْمِهِ وإحكامِ نفسِهِ ؛ مِثلُ الطَّبيبِ الحاذقِ ، العالمِ بعلَلِ أمراضِ المريضِ وفِعلِ الأَدويةِ .

وهو يفعلُ بعدَ استخارةِ اللهِ مِراراً وتَضرُّعِهِ إليهِ ، ويُعفِّرُ وجهَهُ بالتُّرابِ بينَ يدَيهِ ، وتَسليمِ قلبِهِ ورُوحِهِ ، وتَوجُّهِهِ إلىٰ حَضرَةِ اللهِ تعالىٰ .

ولا يرفعُ صوتَهُ بالذِّكرِ كثيراً ، إلَّا أنْ يكونَ مغلوباً[1] بغيرِ إرادتِهِ ، ولا ينامُ باختيارِهِ ، ولا يتَّكِئُ علىٰ شيءٍ ، ولا يَتعلَّلُ بشيءٍ .

ولا يُصلِّي إلَّا الفرائضَ والسُّننَ ، وركعتَيِ الضُّحىٰ ، وركعتينِ بعدَ تجديدِ الوُضوءِ ، ولا يَخطُرُ ببالِهِ مِنَ الكَراماتِ والمَواهبِ شيءٌ ، ولا يَرىٰ لنَفْسِهِ وخَلوَتِهِ وخِدمَتِهِ قِيمةً ، ولا يُبقِي عندَهُ دَعوىٰ ولا رُعُونةً ، ويرفعُ عن نَفْسِهِ الخَواطِرَ الرَّدِيَّةَ ، ويَنفِي عن قلبِهِ الإرادةَ الفاسدةَ الخَسِيسةَ ، ويَستعمِلُ دوامَ ذِكرِ اللهِ تعالىٰ ، وتَقليلَ الغِذاءِ بمِقدارِ صبرِهِ وقُوَّتِهِ وطاقتِهِ وضَعفِهِ وصِحَّتِهِ ، ويَستعمِلُ الطِّيبَ والبُخورَ دائماً ، ولا يأكلُ دَسَماً .

ويَشتَغِلُ بذِكرِ اللهِ تعالىٰ بالأدبِ ، ويكونُ دائماً مثلَ صاحبِ خِيانةٍ عَظيمةٍ بينَ يدَيِ سُلطانٍ جائرٍ .

← وأمَّا مَن تَرَكَ الجُمُعةَ ، وزعَمَ أنَّه في الخَلوَةِ ، وأنَّه إن خَرَجَ تَتَشَوَّشُ جَمعِيَّتُه . . فهو ضالٌّ مُخطِئٌ ، نَعوذُ باللهِ منه وممَّن يُحَسِّنُ له ذلك ؛ فهو عَينُ الضَّلالِ) .

وفي الكتابِ نَفْسِه ، عند وصيَّتِه لعمادِ الدِّينِ حامدِ بنِ عقبةَ بنِ هِبةِ اللهِ ، قال : (أنَّه يَجتَنِبُ مُخالَطةَ الخلقِ ، ويَكتَفِي مِنَ الخلقِ ومُخالَطتِهم بحضورِه معهم في الجُمُعةِ والجماعةِ) .

(١) في الأصل : (مطلوباً) .

ولا يَفعلُ شيئاً يُخالِفُ الشَّرعَ والسُّنَّةَ ، ولا يَلتفِتُ إلىٰ إظهارِ الأشياءِ ، ويَدفعُ عن نَفْسِهِ بالذِّكرِ ، ويَستحيي مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ويَستغفِرُ مِنْ طاعتِهِ كما يستغفِرُ مِنْ مَعصيتِهِ ، ويخافُ علىٰ نَفْسِهِ وحالِهِ مِثلَ ما يخافُ على الكفَّارِ .

ولا يدخلُ الخَلوَةَ إلَّا سلِيمَ الِاعتقادِ ، صحيحَ العقيدةِ ، مؤمناً باللهِ تعالىٰ وملائكتِه وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ، مُوقِناً بالبَعثِ ، والجَنَّةِ والنَّارِ ، والوَعدِ والوعيدِ ، مُحِبّاً لأصحابِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم .

ولو كان بخلافِ هٰذا . . يدخلُ مُنافِقاً مُبتدِعاً ، ويخرُجُ زِنديقاً .

ويختارُ إراداتِ اللهِ تعالىٰ علىٰ إرادتِهِ ، ويُحِبُّ لجميعِ النَّاسِ ما يحبُّ لنَفْسِهِ .

وإذا خرجَ مِن الخَلوَةِ . . لا يُظهِرُ إلَّا العَجزَ والكمالَ[1] ، ويَحفَظُ القَلبَ واللِّسانَ ، ويُداوِمُ في خَلوَتِه وغيرِ خَلوَتِه على الوُضوءِ والطَّهارةِ ، ولا يُبقِي لهُ مَحبَّةَ الدُّنيا وأربابِها ، ويَطلُبُ العِصمةَ مِنَ اللهِ ، والأمانَ مِنْ شُرورِ نَفْسِهِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ ، والتَّوفيقَ على الطَّاعةِ وحُسنَ الخاتمةِ ؛ لأنَّ الأمورَ بخَواتِمِها[2]

---

(١) كذا في الأصلِ ، ولعلَّ الأنسبَ : (لا الكمال) .

(٢) أخرَج البخاريُّ (٦٤٩٣) ومسلم (١١٢) عن سيدنا سَهلِ بن سَعدٍ رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ ـ فِيمَا يَرَى النَّاسُ ـ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَيَعْمَلُ ـ فِيمَا يَرَى النَّاسُ ـ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » ، زاد البخاريُّ : « وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا » .

فصل

في معرفة النفس وتتابعها[1] ولا يعرفها بالحقيقة أحدٌ أبدًا

اعلَمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ النَّفْسَ شرَّ الأشياءِ ، وهي ما بينَ جنبَيكَ ، وهي مَطِيَّتُكَ[2] وأنتَ مُحتاجٌ إليها ، ومَثَلُها كمَثَلِ السَّارقِ الواقفِ علىٰ مَتاعِ البيتِ في بيتِكَ ، وهي قَرينةُ الشَّيطانِ ، ومَأوىٰ كُلِّ سُوءٍ ، ولها صِفاتٌ مَذمومةٌ : تُحِبُّ الشَّرَّ وتُبغِضُ الخيرَ ، تُخالِفُ العَقلَ وتُوافِقُ الهَوىٰ ، تَدعُوها إلى الطَّاعةِ وهي تَجرُّكَ إلى المعصيةِ ، وهي في الشِّبَعِ مِثلُ السَّبُعِ ، وفي الجُوعِ مِثلُ الطِّفلِ الضَّعيفِ ، وفي الغَضَبِ مِثلُ المُلوكِ الجبابرةِ ، وفي الشَّهواتِ مِثلُ البهائمِ ، وفي الخَلَوَاتِ مِثلُ الهِرَّةِ ، وفي الأَمنِ مِثلُ النَّمِرِ والأسَدِ .

ومِن سُوءِ عادتِها : تخافُ مِنَ الفَقرِ والقِلَّةِ ، ولا تخافُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ومِن أليمِ عِقابِهِ وعذابِهِ ، وهي مُسخَّرةٌ للشَّيطانِ .

ولها أعوانٌ وأنصارٌ ؛ مِثلُ الدُّنيا وزَهرَتِها[3] ، والهَوىٰ ، والشَّيطانِ ، وما يتعلَّقُ بها مِن كلِّ واحدٍ مِنْ أعوانِها جنودٌ وَوُفودٌ ، وخَيلٌ وحَشَمٌ مِنْ زِينةِ الدُّنيا[4] ، ثمَّ كَثرةُ الأكلِ ، وكَثرةُ النَّومِ ، وكَثرةُ الضَّحِكِ وحِكايةُ العُشَّاقِ ، وحُبُّ الدُّنيا ، واختيارُ الغِنىٰ والكِبْرِ ، والحسَدِ والنَّميمةِ ، والعَداوةِ الذَّميمةِ ، وارتِكابُ المعاصي ، والملاعبِ والملاهي ، والإشتغالُ بكُلِّ ما لا يَعنِيهِ ، وجمعُ المالِ ، وطُولُ الأملِ

---

(١) في « الأصل » : « وتَتابُعِها » بالباءِ المُوحَّدةِ ، والمُثبَتُ أنسَبُ للسِّياقِ ؛ فالتَّتابُعُ هو : التَّهافُتُ في الشَّرِّ واللَّجاجُ ، ولا يكون التَّتابُعُ إلَّا في الشَّرِّ . يُنظر : « الصِّحاح » للجوهريِّ (ت ي ع) .

(٢) بمعنىٰ : أنَّها الَّتي تُسيِّرك وتذهبُ بك إلىٰ هواها ومُبتغاها .

(٣) وتُقرأ : (وزهوتها) .

(٤) حَشَمُ الرَّجُلِ : خَدَمُهُ ، ومَن يَغضبُ له . « الصِّحاح » (ح ش م) .

والأمانِيّ ، والأمرُ بالمنكرِ والمنعُ عن المعروفِ ، والتَّمنّي والغُرورِ ، والهَوىٰ والسُّرورِ ، والعِماراتُ والتِّجاراتُ ، وتَحسينُ القبيحِ ، وهَتْكُ السِّترِ ، ومُجاوَزةُ الحُدودِ ، واستعانةُ الباطلِ ، وإنكارُ الحقِّ ، وتَعظيمُ أبناءِ الدُّنيا ، وتحقيرُ أبناءِ الآخرةِ ، كلُّ هٰذه مِنْ صفاتِ النَّفْسِ الأمّارةِ بالسُّوءِ ، كلُّ عِرقٍ مِنْ عُروقِ بَني آدمَ بِيَدٍ واحدٍ مِنْ أعوانِها .

فمَنْ وفَّقهُ اللهُ تعالىٰ وبصَّرَهُ بعُيوبِها . . أعانَهُ علىٰ تَسخِيرِها ومَعرِفةِ مَكايِدِها ، وألجَمَها بلِجامِ الوَرَعِ والتَّقوىٰ ، وقيَّدَها بسَلاسِلِ الذُّلِّ والإنكسارِ وتَكليفاتِ الشَّرعِ ، ويَقتلُها بسَيفِ المُجاهدةِ ، ويُسلِّطُ عليها الجُوعَ والعَطَشَ والسَّهَرَ ، ويُخالِفُها في كلِّ شيءٍ ؛ إلَّا في طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، ويَخافُ مِنها في الطَّاعةِ أيضاً ، ويذمُّها علىٰ جميعِ أفعالِها ، ولا يَغفُلُ عن تأدِيبِها ورِياضَتِها إلى الموتِ .

ويجعلُ العَقلَ عِقالَها ، والشَّرعَ سِجنَها ، والعِباداتِ سَجَّانَها ، وذِكرَ الموتِ طعامَها وشرابَها .

وبعدَ احتياطِها التَّامِّ البالغِ في أمرِها ؛ يَتضرَّعُ هٰذا العَبدُ المسكِينُ إلىٰ خالِقِها ومُوجِدِها ومُنشِئِها ، ويستعيذُ إليهِ مِنْ كَيدِها وسُوءِ عادتِها وَغَلَبَتِها علىٰ عَقلِهِ ، ويطلُبُ منهُ الأمانَ مِنْ شرِّها وأمانِيِّها .

وإنَّ مَثَلَ العَقلِ والنَّفسِ مَثَلُ شخصَينِ عَدُوَّينِ ، قاصِدَينِ قدِيمَ العداوةِ والخُصومةِ ، وبِيَدِ كلِّ واحدٍ منهما سَيفٌ [1] مُترَقِّبُ العَقلِ [2] مِنْ صاحبِهِ ، ولا يقطَعُ النَّظَرَ منهُ ؛ حتَّىٰ إذا غَفَلَ . . يقتُلُهُ ، وكلُّ مَنْ غَلَبَ . . سَلَبَ .

ومَنْ كانَ ظالماً لنَفْسِه ويقتلُها بظُلمٍ . . نَجَا مِنْ شرِّها ، وأَمِنَ مِنْ مَكايِدِها ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ [3]

---

(١) في الأصلِ : (سيفاً) بالنَّصب ، والمثبتُ الجادَّةُ .

(٢) كذا في الأصل ، ولعلها : (العقر) .

(٣) سورة فاطر : (٣٢) .

والظَّالمُ عليهِ[1] أنْ يَمنعَها مِنَ الشَّهواتِ الفاسِدةِ ، واللَّذاتِ الفانِيةِ ، والأمانيِّ الباطِلةِ ، والآمالِ الكاذِبةِ ، وغُرورِ الدُّنيا ، وحُبِّ المالِ والشَّرفِ ، ويجرَّها إلىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ طَوعاً وكَرهاً ، وعلىٰ مُتابعةِ الشَّرعِ والسُّنَّةِ انقِياداً أوِ اضطراراً ، ويُحرِّضَها علىٰ حُبِّ الآخرةِ وذِكرِ الموتِ ، ويخافَ مِنْ كَيدِها ومَكرِها ورُعونَتِها في العِبادةِ والزُّهدِ ؛ فإنَّ خِداعَها وفسادَها في الطَّاعةِ أكثرُ مِنَ المعصيةِ .

وإنَّ لها في الطَّاعاتِ شَراباً وعَيشاً أحَبُّ إليها مِنْ رُكوبِ المعاصي ، مِثلُ : تَزيينِ الطَّاعاتِ ، ورُؤيةِ العِبادةِ وقِيمةِ العَمَلِ ، والرِّياءِ والمِراءِ والنِّفاقِ ، وحُبِّ إقبالِ الخَلقِ ، وتَقبيلِ اليَدِ ، والتَّبرُّكِ والزِّيارةِ ، وحُسنِ الهيئةِ[2] ، وثَناءِ الخَلقِ ، ورَغبةِ المُلوكِ ، وتَردُّدِ أبناءِ الدُّنيا ، وحُضورِ السَّماعِ ، وتَخريقِ الخِرَقِ ، والتَّصنُّعِ ، وإظهارِ الصَّومِ والصَّلاةِ وقِلَّةِ الأكلِ لرُؤيةِ النَّاسِ ، والبكاءِ الكاذِبِ ، وتحريكِ الشَّفَةِ ، والإشارةِ بالعَينِ ، والتَّخَشُّعِ بلا خُشوعِ القَلبِ ، ولُبسِ المُرَقَّعاتِ ، ورُؤيةِ المناماتِ والمؤاخاتِ[3] ، والحُلمِ على الماضي والمستقبلِ ، والمبالغةِ في الطَّاعاتِ والعبادةِ عند رُؤيةِ العاجِزينَ ، والتَّوانِي والتَّكاسُلِ في الخَلوَةِ ، وكَثرةِ الأصحابِ والإراداتِ ، وأكلِ الأطعمةِ اللَّذيذةِ ، والتَّرفيعِ في الصَّدرِ في المجالسِ ، والرِّضا بحضورِ المُرْدَانِ في السَّماعِ ونَظَّارةِ النِّسوانِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ شرِّ الشَّيطانِ .

فإنَّ هٰذه الخِصالَ أشرُّ مِنْ شُربِ الخمرِ وارتكابِ المعاصي ، أعاذَنا اللهُ مِنْ[4] شُرورِ أنفُسِنا ورُؤيةِ أعمالِنا .

---

(١) في الأصلِ : (عليها) ، ولعل الصواب ما أثبتُّ .

(٢) وتُقرأُ : (الهَيبة) .

(٣) كذا رسمُها في الأصل .

(٤) مِن قولِه : (شرِّ الشَّيطانِ) إلىٰ (مِن) مُحالٌ عليه بشَولةٍ في الحاشيةِ .

قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذَا أَرَادَ ٱللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً . . أَبْصَرَهُ بِعُيوبِ نَفْسِهِ »[1] .

اللَّهُمَّ ؛ بصِّرْنا بعُيوبِ أنفُسِنا ، وسيِّئاتِ أعمالِنا ، ولا تَكِلنا إلىٰ أنفُسِنا طَرفةَ عَينٍ ولا أقلَّ مِنْ ذٰلكَ ، وانصُرْنا علىٰ أعدائِنا ، واجعَلْنا مِنَ الَّذينَ خَرجوا مِنَ الدُّنيا آمِنينَ ، ولا تَفضَحْنا علىٰ رُؤوسِ الأشهادِ ، إنَّكَ لا تُخلِفُ المِيعادَ .

---

(١) أخرَجه البيهقيُّ في « شُعب الإيمانِ » (١٠٠٥٣) من مُرسلِ محمَّدِ بنِ كعبٍ القُرَظِيِّ رحمه الله تعالىٰ ، بلفظِ : « إذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً . . جَعَلَ فِيهِ ثَلَاثَ خِلَالٍ : فَقَّهَهُ فِي الدِّينِ ، وَزَهَّدَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَبَصَّرَهُ عُيوبَهُ » .

فصل

في نصيحة الفقير وإرشاده[1]

إذا أرادَ الفقيرُ أن يَقطَعَ طريقَ الآخرةِ آمِناً ، ويَعبُرَ بِحارَ آفاتِ الدُّنيا سالِماً . . فيلزمُ هٰذا كُلَّه جِدّاً ؛ فإنَّهُ أصلُ العُبودِيَّةِ ، ومَدارُ الخِدمَةِ والطَّاعةِ .

ويُشترطُ معَ جميعِ ذٰلكَ[2] : أكلُ الحلالِ وتَركُ المِحالِ[3] ، وصِحَّةُ الِاعتقادِ وصِدقُ الِاجتهادِ ، واستعدادٌ للمَوتِ واستدراكُ الفَوتِ ، والنَّظَرُ في أمرِهِ قبلَ حُلولِ قَبرِهِ ، وحِفظُ اللِّسانِ عنِ الإنسانِ ، والِاشتغالُ بعُيوبِهِ عن عُيوبِ غيرِهِ ، وموعظةُ نَفْسِهِ قبلَ موعظتِهِ إخوانَهُ ، وبُغضُ الدُّنيا ظاهراً وباطناً ؛ محبَّةً للهِ تعالىٰ في تَركِ ما فيها ، وكِتمانُ الحالِ وتَركُ المَقالِ ، وتَركُ ما لا يَعنِيهِ في جميعِ الأشياءِ ، والدُّعاءُ لعامَّةِ المسلمينَ ، وكِتمانُ مَصائبِهِ وإظهارُ مَعايبِهِ ، وتَسليمُ الأعضاءِ إلى النَّفْسِ في كلِّ يومٍ جديدٍ ، وإلزامُها بحِفظِ رِعايَتِها مِنْ عذابِ النَّارِ ، والنَّظَرُ إلى الخَلقِ بعَينِ الشَّفَقَةِ والرَّحمةِ ، وإلىٰ أربابِ الدُّنيا بالعِبرةِ ، لا بالإنكارِ والحَسَدِ ، وبَذلُ النَّصيحةِ وتَركُ الفَضِيحةِ ، وكَظمُ الغَيظِ ، وتَسكِينُ الغضبِ عندَ القُدرةِ عَنِ الصَّديقِ والعَدُوِّ إلَّا في مَحارِمِ اللهِ تعالىٰ ، وقَطعُ النَّظَرِ عن عَمَلِهِ والتَّفويضِ إلىٰ مَنْ يعمَلُ لهُ ، والنَّدَمُ علىٰ إفلاسِه كأنَّهُ في آخِرِ أنفاسِه ، وتَهذِيبُ الأخلاقِ ، وتَبدِيلُ الأفعالِ ، ومُداراةُ النَّاسِ ، والصَّبرُ علىٰ تَركِ اللَّذَّاتِ والشَّهَواتِ ، وتَركُ القَدْحِ في الأحياءِ والأمواتِ ، ومُخالَفةُ الشَّيطانِ والهَوىٰ والنَّفْسِ والقَلبِ عندَ الجُوعِ والعُرْيِ والحرِّ والبَردِ في السَّفَرِ والحَضَرِ ، وصِدقُ اللِّسانِ ؛ فإنَّهُ زُبدَةُ مَعانِي

---

(١) يعيدُ السُّهروردِيُّ في هٰذا الفصلِ بعضَ فقراتِ النُّصحِ والإرشادِ للفقيرِ الَّتي ذكرها سابقاً .

(٢) قوله : (ويشترط مع جميع ذٰلك) وقعت في الأصل بعد قوله : (فيلزم هٰذا كله جداً) ، ولعلَّ الأنسبَ ما أثبتُّ .

(٣) المِحالُ ـ ككتابٍ ـ : الكيدُ ورَومُ الأمرِ بالحِيَلِ . ينظر : « تاج العروس » (٣٠/٣٩٤) .

الإنسانِ ، والإجتنابُ عنِ الكذبِ ، وجَريُ اللِّسانِ بالصِّدقِ والصَّوابِ ، والتُّقَىٰ في الإستقامةِ بتَكرارِ أَهوالِ يومِ القِيامةِ ، والنَّظَرُ البالِغُ في الغِنَىٰ والفَوتِ ، والنُّطقُ بكلامِ الخيرِ ، وإلَّا . . السُّكوتُ ، والقَناعةُ بما رزقَ اللهُ .

والقِيامُ بأمرِ اللهِ تعالىٰ ، وتَعوُّدُ النَّفْسِ القَلِيلَ مِنَ الأكلِ ، وتَعوُّدُ اللِّسانِ بالكثيرِ مِنَ الذِّكرِ ، ومُحاسَبةُ العُمُرِ والأيَّامِ في كلِّ يومٍ وساعةٍ ، واختيارُ الخُمُولِ وتَركُ الشُّهرةِ ، والإنقطاعُ مِنَ العَلائقِ ، والإنفرادُ عنِ الخَلائقِ ، وتَركُ التَّدبيرِ والرِّضَا بالتَّقديرِ ، وصَلاةُ الإستخارةِ في كلِّ حركةٍ وسُكونٍ ، ولُزومُ البيتِ ، واختيارُ الصَّمتِ ، وذِكرُ الموتِ وهَمِّ الوقتِ ، والتَّعفُّفُ مِنَ السُّؤالِ إلَّا مِنْ ضَرُورةِ الحالِ ، وتركُ حُظوظِ النَّفْسِ ، وانقِيادٌ لأحكامِ[1] الشَّرعِ ، والظَّنُّ بجميعِ الخلائقِ النَّجاةَ مِنَ النَّارِ ، وبنَفْسِهِ مِنَ الدَّاخِلينَ فيها ، وتركُ حِكاياتِ الدُّنيا وأبنائِها وسِيرةِ مُلوكِها وعاداتِها ومَملُوكِها .

وحِفظُ أوقاتِ الصَّلاةِ مِنْ أوَّلِها ، ومُداوَمةُ الوُضوءِ والطَّهارةِ في الثَّوبِ والبَدنِ ، واستماعُ كلامِ المشايخِ بالحُرمَةِ ، وكلامِ الجهَّالِ بالعِبرةِ ، وتَحقيرُ النَّفْسِ ، وتَعظِيمُ الشَّرعِ ، وتركُ الإختِلاطِ بالمُتصوِّفةِ ، إلَّا قوِيّاً مِنْ أهلِ اللهِ .

ومُلازَمةُ الحديثِ النَّبويِّ ، وتركُ حديثِ الدُّنيا ، والإقبالُ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ بالنَّشاطِ ، والبكاءُ على الذُّنوبِ ، ومُلازَمةُ النَّفْسِ مِنْ كَثرةِ العُيوبِ ، والإستغفارُ عنِ الطَّاعةِ خوفَ الرَّدِّ للطَّاعةِ ، والرَّجاءُ معَ العَمَلِ ، والخوفُ مِنَ الأجَلِ ، والكِتمانُ ممَّنْ تُهدي إليهِ ، والسُّكوتُ عَمَّنْ تُجري عليهِ .

وتَركُ الدُّنيا والزُّهدُ في الخَلقِ ، والإقبالُ على الآخرةِ وحُسنُ الخُلُقِ ، وتركُ السَّبَبِ والشَّكوَىٰ بحُضورِ المولىٰ ، وحسمُ مادَّةِ الشِّركِ بإماطةِ الفُضولِ ، وهَجرُ الخَلقِ ، وصلاةُ اللَّيلِ ، وبكاءُ السِّرِّ ، وصومُ الدُّنيا وافتكارُ الآخرةِ .

---

(١) في الأصلِ : (أحكام) ، والصواب ما أثبتُّ .

دَع نفسَك ؛ فإنَّها مَحلُّ الأنجاسِ والأرجاسِ ، وكُن طَريحاً تحتَ أقدامِ النَّاسِ .

أيُّها المقصِّرُ ؛ أينَ العَمَلُ ؟! أيُّها المُتمنِّي ؛ إلىٰ متىٰ هٰذا الأَمَلُ ؟! أينَ الرَّحيلُ ؟ أينَ الزَّادُ ؟! وأين أُهْبةُ السَّبيلِ ؟!

هٰذا كلامٌ مفيدٌ مختَصَرٌ : عليكَ بحِفظِ اللِّسانِ وغَضِّ البَصَرْ .

فصل
في تفضيل الفقير على ما سواه

اللهِ الَّذي لا إلٰهَ إلَّا هو المُبدِئُ المعيدِ ؛ لو أتىٰ آتٍ مِن ربِّي تبارَكَ وتعالىٰ ، ويقولُ : أنتَ مُخيَّرٌ مِن ربِّك ؛ تعيشُ إلىٰ يومِ القِيامةِ ، وتَملِكُ الدُّنيا بأسرِها وأجمَعِها بلا مُنازَعةِ أَحَدٍ ، وتدخلُ الجنَّةَ معَ الأغنياءِ ، أو تموتُ السَّاعةَ ، وتدخلُ النَّارَ ، وتُبعَثُ في زُمرةِ الفُقراءِ ؟

وعِزَّتِهِ وجَلالِهِ ؛ لا أرغَبُ في نَعيمِ الدُّنيا ولا دُخولِ الجنَّةِ ! واختيارُ الموتِ ودُخولِ النَّارِ خَيْرٌ ![1] ولَلفَقرُ والنَّارُ خيرٌ مِنَ العارِ ![2] لِما وَجدتُ مِن لَذَّةِ العَيشِ وطِيبِ الوقتِ ، وصَفاءِ الحالِ وفراغِ القلبِ ، وراحةِ البَدَنِ وسلامةِ النَّفْسِ ، وكَثرةِ المُناجاةِ باللَّيلِ مع مَولايَ ، وعِزَّةِ نَفْسِي عندَ أَكلِ الكِسْرَاتِ اليابساتِ ، وذُلِّي للهِ عندَ لُبسِ المُرقَّعاتِ ، وصَفوةِ عَيشِي في جميعِ الأحوالِ .

يا إخواني الفُقراءَ ؛ الموتُ موتُكُم ، والحياةُ حياتُكُم ، والدُّنيا دُنياكُم ، والآخرةُ آخِرتُكُم ، والعَيشُ عَيشُكم ، عانِقُوا الفَقرَ ، وتَوسَّدُوا الرُّكبةَ إذا نِمتُم ، واشكُروا للهِ إنْ كُنتُم إيَّاهُ تَعبُدونَ .

واصبِرُوا علىٰ ما أصابَكُم مِنْ هٰذه النِّعمَةِ الجَسِيمَةِ والمَوهِبةِ العَظِيمةِ ، واجعلُوا التَّكبيراتِ الأربعَ علىٰ جميعِهِم قائماً ، بينَ بَياضِ النَّهارِ وسَوادِ اللَّيلِ أُمورٌ عجائبُ ، وشُرورٌ نوائبُ[3] ؛ فكَم مِنْ فاسقٍ تائبٍ ، وكَم مِنْ

---

(١) أُلحقتْ من حاشيةِ (الأصلِ) .

(٢) هي شَطحةٌ صوفيَّةٌ وحالةٌ روحانيَّةٌ اعتَرَتِ الإمامَ رحمه الله ، أخرَجَته عن مَألوفِ عادتِه المَعهودةِ عنه في التِزامِه بحُدودِ الشَّريعةِ ، وإنَّما أرادَ رحمه الله المبالغةَ في ذَمِّ الدُّنيا والمتكالِبينَ عليها ، وإظهارَ الولاءِ للفُقراءِ مِن أهلِ اللهِ كما سيأتي ، وهٰذا كثيرٌ في كلامِهم ، مَعروفٌ في كُتُبِهم .

(٣) في الأصل : (أموراً عجائب وشروراً نوائب) .

زاهدٍ خائبٍ ، وكَم مِنْ حاضِرٍ غائبٍ ، فاتَّقُوا اللهَ واسمَعُوا وأطِيعُوا ، واعتَبِرُوا يا أُولِي الأبصارِ .

واعلَمُوا أنَّ مالَكُم أمالَكُم ، واقطعوا آمالَكُم ، وانتَظِرُوا في آجالِكُم ، وانظُروا ما كَسَبتُم لِغَدِكُم ؛ فإنَّ غداً للنَّاظِرِينَ قريبٌ .

فصل

في صفة الدنيا

وحقيقةُ الدُّنيا : مَوضِعُ الفِكرِ [1] ومَنزلُ العِبرةِ ، ومَقامُ العَثرَةِ وبِناءُ أهلِ الجَسرَةِ .

وهي مَزرعةُ المؤمنينَ ، وسُوقُ الطَّالبينَ ، ومَتجَرُ المريدِينَ ، ومَطيَّةُ القاصِدِينَ ، وقَنطرةُ السَّالكِينَ ، ومَعشُوقةُ المَغرُورِينَ ، ومَمَرُّ الصِّدِّيقينَ ، ومَزبَلَةُ العارِفِينَ ، ومَملَكةُ الشَّياطينِ ، عجُوزةٌ بِكرٌ ، يا أهلَ الفِطنَةِ والفِكرِ ، مكَّارةٌ غدَّارةٌ ، فرَّارةٌ مرَّارةٌ ، في كلِّ لَحظةٍ لها صديقٌ وخليلٌ ، وفي كُلِّ ساعةٍ لها هالكٌ وقتيلٌ ، بَحرُها عميقٌ ، وراكبُها غريقٌ ، مُحِبُّها مخذولٌ ، وصديقُها مقتولٌ ، زاهدُها فارغٌ ، وراغِبُها مشغولٌ ، سُرورُها هَمٌّ ، وتِرياقُها [2] سُمٌّ ، وساحِلُها يَمٌّ ، شِفاها داءٌ ، وصِحَّتُها بلاءٌ ، ومحبَّتُها عَناءٌ ؛ فإنَّها للنَّوائبِ والرَّزايا مخلوقةٌ ، عدوَّةٌ لجميعِ الخَلقِ ، شرابُها سَرابٌ ، ومعمورُها خَرابٌ ، وحاصِلُها تُرابٌ ، حلالُها حِسابٌ ، وحرامُها عذابٌ ؛ فاتَّقُوا اللهَ يا أُولي الألبابِ .

---

(١) كذا في (الأصل) ، والإفرادُ (الفِكرَةِ) أنسَبُ للسِّياقِ .

(٢) التِّرياقُ : دواءُ السُّمومِ ، فارسِيٌّ مُعرَّبٌ . ينظر « مختار الصِّحاح » (ت ر ق) .

فصل
في صفة طريق الله تعالى

اعلَم : أنَّها أنوَرُ مِنَ الشَّمسِ ، وأضوَءُ مِنَ القمرِ ، وأبيَنُ مِنَ النَّهارِ ، ولها علاماتٌ وآياتٌ واضِحاتٌ ، مَنْ تركَها . . ضلَّ ، ومَن سلكَها . . اهتَدَىٰ ، ولٰكنَّها كثيرةُ الموانِعِ والمقاطِعِ والمهالِكِ ، وفيها جِبالٌ راسخاتٌ ، وبحارٌ زاخِراتٌ ، وقطاعٌ زاجِراتٌ ، تحتَ كلِّ حُجرتينِ كَمِينٌ ، وفوقَ كلِّ مَدَرٍ أُسدُ عَرينٍ ، هٰذا نَعتُها للنَّاظِرينَ مِنَ البعيدِ .

وأمَّا القريبُ . . فَكسَرابٍ بِقِيعَةٍ يحسَبُه الظَّمْآنُ ماءً ، لا يقطَعُها إلَّا الصِّدِّيقونَ الخائفُونَ ، التَّارِكونَ التَّائبُونَ ، الرَّاغِبونَ السَّابِقونَ بقلوبٍ عامرةٍ سماوِيَّةٍ ، وأبدانٍ خَربةٍ أرضِيَّةٍ .

واعلَمْ أيُّها السَّائرُ في طريقِ اللهِ : أنَّ الخَلوَةَ لا تَصِحُّ إلَّا لعالِمٍ ربَّانِيٍّ ، ومُريدٍ صادقٍ مجرَّدٍ رُوحانيٍّ ، جافِ القَلبِ عن جميعِ الإراداتِ والمُراداتِ ، تاركٍ للدُّنيا والآخِرةِ[1] ، عاشقاً للموتِ عدوّاً للدُّنيا ، ونَفْسُهُ مُجِبَّةٌ للآخرةِ وأهلِها ، كريمٍ بمالِهِ ، عفيفٍ عمَّا ليسَ لهُ ، ذِي قلبٍ حيٍّ ونَفْسٍ مَيتةٍ[2] ، وعقلٍ صحيحٍ ، وهَوىً سَقيمٍ ، قليلِ الأكلِ ، كثيرِ الذِّكرِ .

وبعدَ ذٰلكَ يتوجَّهُ إلىٰ مَلِكِ المُلكِ والملَكُوتِ ، ويتمسَّكُ بقولِ : لا إلٰهَ إلَّا اللهُ ، ويتَبرَّأُ مِنَ الكُلِّ ، ويتُوبُ إلى اللهِ مِنْ جميعِ دعواهُ ومَحابِّهِ ، ويَشهدُ بقَلبِه ويقولُ بلسانِه : لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، ولا مَعبُودَ سِواهُ ، ولا إلٰهَ إلَّا هو الحيُّ القيُّومُ الباقِي ، وما سِواهُ ميِّتٌ فانِي .

---

(١) بمعنىٰ : أن يَجتهِدَ في العَمَلِ ، ويَترُكَ مردودَ ذٰلك عليه ليومِ القيامةِ ، لا يَشغَلْ نَفْسه بما هو غيبٌ ، والله أعلم .

(٢) نَفْسُه ذُبِحتْ بسُيوفِ المُجاهَدةِ ، وقَلبُه حيٌّ بنُورِ المُوافَقةِ . كما في « الرِّسالةَ » : (ص ٦٨٣) .

ثمَّ قالَ الشَّيخُ رضي الله عنه : لِنَفْسِي أنشدتُ في وَصفِ حالي وزُبدَةِ مَقامِي هٰذه الأبياتَ شِعراً : [من السريع]

نَصَحْتُكُمْ يا إخوتي كُلَّكُمْ ... لَا تَنْظُرُوا فِي زِيِّ تَلْبِيسِي

وَلَا تَقُولُوا إِنَّهُ زَاهِدٌ ... لَا تَسْمَعُوا قَولِي وَتَدْلِيسِي

كِيسِي وَكَأْسِي مِلْءُ[1] أَوْزَارِي ... لَا تَقْرَبُوا كَأْسِي وَلَا كِيسِي

أَمَا سَمِعْتُمْ أَنَّنِي رَاهِبٌ ... تَحْتَ ٱلْعَبَا وَٱلْعَقْلُ تَبْلِيسِي

غُرُوسُ جَهْلٍ وَرْدُهَا زَلَّةٌ ... لَا تَقْرَبُوا وَرْدِي وَتَغْرِيسِي

مَدْرَسَتِي قِبْلَتِي[2] وَذَا مَعْبَدِي ... تَكْرَارُ ذَنْبِي عِلْمُ تَقْدِيسِي

نَفْسِيَ إِبْلِيسٌ يُجَرِّيهَا ... تَعَوَّذُوا مِنْ شَرِّ إِبْلِيسِي

تمَّت ، وبالخيرِ عمَّت ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ خيرِ خَلقِه محمَّدٍ وآلِه وصَحبِه أجمعينَ

اللَّهمَّ ؛ اغفِرْ للمُؤمِنينَ والمؤمناتِ ، والمسلِمينَ والمسلِماتِ ، الأحياءِ والأمواتِ ، مِنْ أهلِ السُّنَّةِ والمجموعةِ[3] والجماعاتِ ، آمينَ ؛ برحمتِكَ يا أرحمَ الرَّاحمينَ .

---

(١) في الأصل : (ملأىٰ) .

(٢) كذا بالأصل ، والشطر مكسور .

(٣) يعني بِهِمْ : الصُّوفيَّةَ . والله تعالىٰ أعلم .